# كيف يبتسم الناس

بقلم: سعد حامد

غربت الشمس وانا امضى في الطرقات على غير هدى ، واشعر بالوحدة .. اننى وحيد وغريب عن هؤلاء الناس لاتربطنى بأحد منهم رابطة ما ، وان اصواتهم واحاديثهم وضحكاتهم تاتى الى خافتة كأنها تأتى من مكان بعيد .. وبدا لى ان هؤلاء الناس يتحايلون على النسيان ويبحثون عنه .. انهم يسهرون ويضحكون ويتحدثون محاولين نسيان ذلك الشبح الذى يتربص بهم ، والذى يقف هناك على الجانب الآخر من الطريق .. شبح الموت .. الذى ينقض عليهم فجأة ، ويطوى حياتهم فى لحظة كلمح البصر..

لقد حدث كل شيء فجأة ... وبلا مقدمات ...

كنت اعيش مع اخى الذى يصغرنى ببضعة اعوام بعد وفاة والدينا ، ولم يكن لنا اشقاء آخرين ، وكنا نسكن فى شقة صغيرة فى حى هادىء ، وكان اخى طالبا فى الجامعة وكنت احتل مكان ابيه وامه ، فقد تركه لى ابى صغيرا واوصانى به ، وكنت اعمل موظفا فى الحكومة ، وقد عاهدت نفسي على ان اكرس حياتى ومالى لبناء مستقبله ، وكما ربانى ابى ولم يبخل على بشيء من ماله او جهده قررت ان ارد الجميل الى اخى الصغير ، وهو احوج ما يكون الى

الدراسة والحنان ، وكان يقدر لى هذا الجهد ويحبنى اعمق الحب ...

اشحت بوجهى عن كل الكماليات من اجله .. ولم افكر فى الزواج من اجله ليضا ..كنت ادرك جيدا ان وجود امراة بيننا سيفسد الامر كله .. ستريد — وهى زوجتى — ان تستأثر بى لنفسها ، ولن يرضيها قط ان يشاركها اى شخص آخر فى حياتى حتى ولو كان اخى .. ستصر على ان تكون حياتى ومالى ملكا خالصا لها .. ولهذا ارجأت فكرة الزواج حتى يتم اخى تعليمه ويتوظف .. وقد كانت التضحية قاسية خاصة وان القلب كان قد خفق خفقة الحب .

كانت « ثريا » فتاة من جيراننا من اسرة طيبة ، مات ابوها وتعيش مع اخوتها وامها ، وهى سيدة طيبة كانت تربط بينها وبين امى اواصر صداقة ومودة .. كانت ثريا جميلة ومثالا للخلق الكريم ، وكنت اراها فى نافذة او فى شرفة بيتها احيانا ، وكنت التقى بها احيانا فى الطريق فيركض قلبى فى صدرى ويحمر وجهها وتلتقى عيناننا فى نظرة معبرة ، وكانت تطرق ، وكنت اواصل سيرى مضطربا خافق القلب..

كانت ثريا فى حوالى الخامسة والعشرين من عمرها ، وكنت اكبرها باعوام اذ كنت فى الاربعين لكننى كنت اشعر من التقاء عيوننا لحظة اللقاء العابر فى الطريق ان هناك شيئا من الحنين والود يربط بين قلبينا .. كانت ثريا هى الامل الحلو الذى يطمح اليه قلبى ، والمصباح المتالق الذى سيضيء حياتى ، وكنت اعتقد ان سعادتى فى الدنيا ستتحقق يوم يفرغ اخى من دراسته ويتوظف ، ويوم اتزوج من ثريا ...

كانت التضحية قاسية .. ضحيت بنفسي وبمالى وبقلبى من اجل عاطفة الاخوة النبيلة ، واحتملت التضحية عن رضا وطيب خاطر لكننى لا انكر اننى كنت اتعذب فى اعماقى ، وكنت احس لذعة الحرمان من ثريا تحرق صدرى .

وفجاة حدث ما حدث ...

ذات يوم بينما كان اخى عائدا من كليته تحرك الترام قبل ان يركب فسقط تحت العجلات ، وحملوه الى المستشفى فى حالة سيئة ، وعندما ابلغونى النبأ ، وهرعت الى هناك وجدته قد فارق الحياة ...

كانت الصدمة قاتلة .. مميتة .. لم يمرض ولم يلازم الفراش بل كان يفيض بالشباب والامل والحياة .. اصبت بذهول ، واستحالت الدنيا امام عينى الى ظلمة دامسة ، ولا ادرى حتى هذه اللحظة كيف شيعت جثمانه الى مقره الاخير ، فقد كنت اسير واتحرك وانظر الى الناس كأننى مستغرق فى حلم رهيب ...

وعندما انفض الناس من حولى القيت بجسدى على الفراش غير مصدق ما حدث ، وانا لا اكاد اقوى على التنفس ، والمرئيات تبدو امامى كأنها اطياف يغمرها ضباب كثيف ، واضطربت افكارى ، وتلاحقت فى ذهنى صور سريعة غامضة لا معنى لها ولا رابط بينها .

ولا ادرى كيف مرت بى الايام الاولى عقب الكارثة ، وقد لازمنى بعض اقاربى ليخففوا عنى المصاب ، ولكن احاديثهم وكلماتهم كانت تطرق سمعى باردة

لا معنى لها لاتصل الى قلبى ولا تخفف من آلامى . كان مصابى اكبر ان ينفع فيه عزاء ...

احسست بشيء فيصدرىقد مات.. جزء من نفسي او نفسي كلها .. لم يعد هناك انسان يستطيع ان يحمل الى العزاء او ان يمسح احزانى بأنامل الحنان ، وكم تمنيت لو كنت انا الذى مت وعاش هو .. لماذا لم ياخذنى الموت ويتركه وهو الشابالباسم الذى ينتظره مستقبل مشرق عريض ، ولكن الموت لا منطق له ، فقد يخطف صبيا ضاحكا بريئا ، وينتزع الحياة من شاب قوى متفتح للحياة ، ويترك كهلا مريضا ورجلا محطما ضائعا لانفع منه لانسان ...

وشعرت بأننى اصبت بشلل فى نفسي وحواسي ، فكنت اجلس فى مكانى بلا حراك احدق فى لاشيء ، ولا افكر فى شيء ، ولا احس برغبة فى شيء ، ولم اكن حتى لأرغب فى الحديث مع اى انسان ، اصبحت اعيش فى صمت مطلق ، ولم اكن افتح فمى الا للضرورة القصوى ...

بدت لى الدنيا مشحونة باليأس والتعاسة ، وكنتاشعر برغبة تتملكنى فى ان ابكى وان اظل ابكى ، وبحزن عميق اسود يتراكم فى اعماقى ، ولكن الدموع لم تستجب لى .. جفت فى عينى .. لقد بكيت يوم وفاة اخى كما لم ابك من قبل ، ولكن فى الايام التالية رحت ابحث عن الدموع عبثا ... كنت اريد ان بكى اياما حتى تخف تلك الاحزان الدفينة فى صدرى ، ولكن الدموع تحجرت فى عينى ...

وتلفت حوالى جزعا .. منهارا .. لم يعد هناك شيء يستهوينى او يجذب انتباهى او يحرك قلبى .. لم يصبح لحياتى طعم ولا معنى ، وزهدت فى كل شيء .. حياتى وعملى .. حتى الطعام لم اعد اتناول منه الا ما يقيم الأود ، وانهارت صحتى ونحل جسدى ، وكنت امضي فى الطرقات مترنحا كالثمل . كنت اذهب الى عملى فأقضي فيه بضع ساعات ثم اتركه وأنا اشعر بالملل والسأم ، فالقى بجسدى على مقعد فى احد المقاهى واروح انظر امامى بعيون ذاهلة لا ترى شيئا ...

ثم اعود الى البيت محطما من التعب فأدور فى المسكن كالماخوذ انظر الى فراش اخى والى ثيابه المعلقة فى الصوان باحثا بعينى عن ذلك الانسان الحبيب الذى كان ملء البصر والسمع .

ما معنى هذه الحياة .. ؟ ! لماذا جئنا ومن اين جئنا .. والى اين نذهب ..؟

ودرت فى دوامة مظلمة عميقة ، ومضيت ادور فيها بلا مخرج ، وكل بضعة ايام اذهب الى قبر اخى،واجلس امامه احدق فيه بعيون جامدة لاتطرف.. ما هو الموت .. ؟ وما معنى هذا كله .. ؟ ! ثم اقفل عائدا الى المدينة مطرقا اترنح ...

وضقت بحياتى ذرعا ، وازدريتها ، وغرقت فى اعماق مأساتى ، ولم اعد اينما وليت وجهى ارى شيئا سوىشاهد القبر ، وفقدت كل شجاعة على مواجهة الحياة ..

واهملت نفسي وثيابى ، وكان اقاربى ومعارفى ينظرون الى فىعطف ، وحاول بعضهم ان يخرجنى من عزلتى المظلمة

النظرات تقتحمني .. البعض ينظر الى في اشفاق ، والبعض في رثاء ، والبعض في سخرية ...

وكنت أحيانا وانا سادر في عذابي تعود الى خيالي ذكريات الماضي ، فأذكر أيامنا الأولى عندما كنت أعيش في كنف ابي وامي واخي . ويبدو أمامي عيني لحظات السعادة والحنان والدفء ... ثم أذكر أيامي مع أخي .. عندما كنا نقضي أوقات فراغنا معا ، وننتزه معا ، ونذهب الى السينما معا ، ونتجول في طرقات القاهرة المزدحمة معا ، ونحن نضحك حتى تدمع عيوننا من الضحك. ثم يجذبني الحاضر الى ظلامه فجأة ، وتصدمني الحقيقة المرة ... كل هذا قد ذهب .. ذهب الى غير عودة ، مضى كل شيء ، وبقيت وحيدا ضائعا في هذه الدنيا الواسعة ...

وفي تلك اللحظات كان يخامرني حنين عجيب الى حياتي الماضية ، وتراودني غريزة حب الحياة ، وتجتاحني رغبة في أن اهرب بنفسي من هذه الاحزان ، وابتسم للحياة مرة اخرى ، وأحاول أن ابتسم لكن الابتسامة لا تطاوعني ، واجد وجهي جامدا كتمثال من الشمع ..

ان الابتسامة لم تعرف طريقها الى شفتي منذ رحل اخي عن هذه الدنيا .. مرت بي شهور طويلة لم ابتسم فيها مرة واحدة حتى ايقنت انني قد نسيت الابتسامة تماما ... !

وكنت اتطلع الى الناس وهم يبتسمون ، واسأل نفسي في حيرة وعجب :

ـ كيف يبتسم هؤلاء الناس .. ؟

واي شيء يجعلهم يبتسمون . ماذا في الحياة يجعل الابتسامة ترتسم على شفاههم .. الحياة كلها تعب وشقاء وعذاب وفراق وموت . الا يذكر هؤلاء الناس حياتهم المعلقة على خيط اوهى من خيوط العنكبوت . الا يذكرون الموت الذي يتربص بهم في كل لحظة ومع كل نفس يتردد في صدورهم .

وفي الدوامة المظلمة التي ادور فيها نسيت كل طيبات الحياة ..

***

اضاءت مصابيح الطرقات ، وهبط الظلام ، ومازلت اهيم في الطرقات على غير هدى أفكر بلا انقطاع ...

وتناهى الى سمعي صوت الشيخ عبد الباسط وهو يتلو القرآن بصوته العذب الأخاذ في مذياع بأحد المتاجر ، فوقفت أنصت اليه وقد انتبهت حواسي ، ومست الكلمات المعجزة شغاف قلبي.. كان يتلو « وما كان لنفسي ان تموت الا باذن الله كتابا مؤجلا » ...

وتلاحقت نبضات قلبي ، والمقرىء يردد الآية بقراءات مختلفة اكثر من مرة وشعرت بهزة في اعماقي كمن مسه تيار كهربي ، وظللت واقفا استمع الى القرآن العظيم في انفعال وخشوع ، ثم غادرت مكاني ومضيت بطيء الخطو وقد احسست بهدوء يشملني لكنني سألت نفسي في حيرة وحزن :

ـ كيف نسيت السماء وانا غريق في محنتي .. ؟

وراودتني من جديد تلك الرغبة في ان اهرب بنفسي من احزاني.. الرغبة في الحياة التي تعتمل في كل نفسي..

رحت انقل قدمي على أرض الطريق بلا وعي وانا غريق في خضم من الافكار

ونجأة وقع بصرى على اضـــواء متالقة تشع من نوافذ مبنى ضـــخم وتنعكس على ارض الطريق ، ورفعت بصرى الى المبنى المتالق الذى يبدد الظلمـــات من حوله ؛ فاذا به مسجد ...

وقفت فى مكانى مبهوتا اتطلع اليه وقد اشـــتدت خفقات قلبى ثم تحركت مقتربا منه ؛ فوقع بصرى على المصلين يؤدون صلاة العشاء ...

وقفت كالخائف واناارتعش كالمقرور، واحدق فى المسجد وكأنه مكان قد حرم على ، وظللت جامدا اتطلع الى النور المنبعث من باب المسجد ومن نوافذه ، ونسيت نفسي لحظات ثم انتبهت ، فاذا بعض المصلين يغادرون المســـجد وهم يتمتمون بالدعاء ، ونظرت الى وجوههم واجتاحتنى الدهشة ..

رايت وجوها هادئة مشرقة مطمئنة ، ولمحت بسمات تتلالأ على تلك الوجوه.. بسمات حلوة كلها الرضا والتفاؤل .. وهتفت من اعماقى :

ـــ كيف نسيت هذا .. ؟! شيء واحد هو الذى يجعل الناس يبتســـمون .. الايمان بالله هو النور الذى يضيء جنبات الصدر . وينزل السكينة فى القلب . هو طوق النجاة الذى يحمل الانســـان من لجة الشقاء والعذاب الى شاطىء الطمأنينة والاســـتقرار .. ليس شيء غيره ..

وعندما غادر المصلون المسجد وجدت نفسي اتسال داخلا اليه ، ورغم اننى احسست براحة تغمر صدرى وانا ادلف الى المســـجد ، فقد اجتاحتنى رغبة شديدة فى ان ابكى ، وان استغرق فى البكاء ...

ووقفت لأصلى العشاء...ونجأة.. فاض من عينى نهر الدموع ، فحطم سد الشقاء والعذاب ، وجرف امامه ركام التعاسة والاحزان الدفينة ... وعندما فرغت من صلاتى لمحت شيخ المســـجد وهو ينظر الى دموعى فى تعـــاطف وحنان ثم رفع عينيه الى السماء وهمس بكلمات ثم انصرف لشانه ..

وغادرت المسجد وانا اشعر بهدوء واطمئنان ، وقد افترت شـــفتاى عن بسمة ..

لقد عرفت اخيراكيف يبتسم الناس.. الايمان .. والأمل .. الايمان بالله الذى يشع فى الصـــدر راحة وفى الاعماق طمأنينة .. والامل .. الامل فى رحمته تعالى وفى عونه ... لقد افتـــدتنى الصدمة صوابى ، واظلم اليأس الدنيا امام عينى .. واحســـت وانا اخرج من المسجد الى الطريق اننى ولدت من جديد ...

نعم انا الآن انسان آخر .. ومضيت اتجول فى الطرقات لكننى لم اكن امضي على غير هدى بل كنت اعرف ماســـوف افعل . وكانت طمأنينة الهية تغمـــر صدرى . وهدوءا نفسيا يشمل عقلى ونفسي جميعا ...

كنت ارســـم الخطوط الاولى لحياة جديدة .. لن البث ان انفذهـــا على الفور .. اجل يجب ان ابدأ من الليلة.. سأبدأ من الليلة فى ترميم حياتى التى حطمها اليأس والحزن .. لن استسلم لليأس القاتل مرة اخرى .. نعـــم لن استسلم ، وسيعيننى الله على ذلك ، ولن يتخلى عنى ...

سأنتقل اولا من المسكن القديم الى شقة اخرى..سأهرب من مثوى ذكرياتى

ولن أعيش بمفردى .. سأتزوج .. أجل سأتزوج ...

ثريا ... يالهى .. كيف نسيتها .. واضاء الاسم امامى وتوهج كالمصباح المتالق فى ظلمة الليل .. تلك الفتاة الجميلة ، جارتنا بنت « الست ام خليل» الطيبة .. الفتاة التى طالما كان قلبى يركض فى صدرى كلما رايتها ، والتى كان وجهها يحمر كلما التقت عيناتا فى نظرة معبرة ، والتى خفق القلب بحبها اول خفقة ، وكان زواجى منها اقصى أمنية لى .. تلك الامنية التى اودعتها — من اجل اخى الحبيب — فى مكان سحيق من صدرى ...

اجل سأتزوج من ثريا ، وسأبدأ حياة جديدة ، وسيقف الله الى جانبى ، ولن يتخلى عنى ، وكل جمعة سنزور معا قبر اخى ، نأترا هناك ما تيسر من القرآن وأترحم عليه .. لن أستسلم لليأس مرة اخرى .. ان الله الذى وهبنا الحياة لنعيشها ولنتمتع بها لايرضي قط أن أعيش عمرى كله فى ظلام اليأس والضياع ، ولن انقطع عن الصلاة ابدا .. لقد اضاءت صدرى المظلم واخرجتنى من ظلمة اليأس الى نور الحياة ...

كنت ارتجف من الانفعال،وفى اعماقى شحنة من الاحاسيس تريد أن تنفجر . لن انام الليل هذه الليلة .. هذه ليلة خالدة فى تاريخ حياتى .. يجب أن أفعل شيئا .. أى شيء .. يحقق آمالى فى الحياة الجديدة التى صممت ان اعيشها ...

واتجهت صوب الشارع الذى اقطن فيه .. وفى هدوء دخلت بيت ثريا ..

اخيرا سنلتقى ، وسيتحقق الامل ، وسننتقل من هنا الى حى آخر والى شقة جديدة واثاث جديد وحياة جديدة ، وساحملك بعيدا عن الناس جميعا الى جنة الحب والزواج ..

وطرقت باب شقتها باسما خافق القلب ، وانفتح الباب عن وجه « الست ام خليل » ومدت يدها تصافحنى وترحب بى ، ودخلت الى حجرة الصالون ..

جلست امامها مضطربا كالتلميذ البليد المحرج ، وكانت السيدة تتطلع الى فى شيء من الدهشة فلم اكن متعودا على زيارتهم ، وكنت اريد أن اصارحها على الفور برغبتى ، ولكن لسانى انعقد فى فمى ، والعرق تصبب على جبينى وانا احاول جاهدا ان انبس بكلمة ، والسيدة تقول لى بين الفينة والفينة مرحبة وكأنها تشجعنى على أن ابدأ الحديث :

— اهلا وسهلا . مرحبا . زارنا النبى ..

وانا ارد عليها بغمغمة لاتبين ..

وبعد لأى قلت لها فى ارتباك وبصوت خافت مرتعش :

— والله ياست ام خليل انا لى عندك رجاء ..

فقالت السيدة وهى لاتنى تتطلع الى فى فضول :

— انا تحت امرك يابنى .. قل ماتريد .. ؟

فقلت ووجهى يزداد احمرارا :

— جئت اطلب الآنسة ثريا زوجة لى ..

ونظرت الى السيدة فى دهشة وعجب كمن تتطلع الى انسان يهذى ..

ثم اطلقت ضحكة ولم تملك نفسها فاستغرقت فى الضحك ، وزادتنى ضحكاتها ارتباكا وحرجا ، وكان قلبى يركض فى صدرى وانا فى اشد العجب من ضحكها ، ثم تمالكت السيدة نفسها وقالت لى فى صوت هادىء فيه رئة اشفاق :

ـ ثريا يابنى تزوجت منذ اكثر من عام .. وبالامس انجبت طفلا جميلا ، اننى عائدة توا من عندها ..

بهت .. ونظرت اليها كالمشدوه ..

واستطردت السيدة فى رقة وحنان :

ـ كيف لم تعلم وانت تسكن فى نفس شارعنا ..

فقلت فى استحياء وانا اكاد ابكى من الحرج :

ـ مرت بى ظروف عصيبة انت تعرفينها. ان وفاة اخى جعلتنى لا احس بالدنيا من حولى . لم اكن طوال الشهور الماضية محسوبا فى الاحياء ...

وتسللت خارجا من البيت كسير القلب اتصيب عرقا ..

والآن ... ماذا افعل .. ؟ لقد فشلت فى اول خطوة اخطوها .. ان القدر يعاندنى ويقف لى بالمرصاد .. ماذا فعلت ياربى حتى تحكم على بكل هذه التعاسة ، وكل هذا العذاب .. ؟

لكننى كنت احس فى قلبى قوة من حديد لا ادرى من اين جاءت .. قوة الايمان بالله وقوة الامل فيه .. اجل.. رغم هذا الفشل لن استسلم .. لن استسلم لليأس والمرض والهزيمة مرة اخرى .. لقد تزوجت ثريا .. الفتاة التى كان القلب يحلم بها تزوجت وانجبت طفلا .. جاءت بطفل جديد الى الحياة.. الحياة التى لاتتوقف ابدا .. وانا ايضا .. لن اتوقف .. لقد فقدت ثريا ولكن هناك غيرها .. هناك عشرات الفتيات غيرها ...

لقد انجبت ثريا .. ان الحياة لاتتوقف ابدا .. لاتتوقف .. وانا لن اتوقف .. سأبدأ من جديد .. نعم سأبدأ من جديد ..